

❦ الفصل الرابع عشر ❦

❦ في هيئة المدافعة ❦

ما أكثر تعب المدافعة وعذابها بالبلوغ المحال فلربما نكون في غاية الاستعداد في التجهيزات المادية والادبية للمسير والمقاتلة ومع ذلك يلزمنا أن نتنظر مجيء الفرصة المناسبة فيتن الحسام المعلق في الحماله من الكسل وتنهض عضلات الذراع من عدم النشاط ولكن المدافعة هي أول خطوة للهجوم فيجب أولا أن نجرب كل واسطة ممكنة في خط المدافعة المتيقظ حتى نتحقق بالدقة والضبط حالة العدو ونعرف ترتيبات رجاله قبل أن نعمل تصميمنا ونبتدىء السير والهجوم وعليه فدافعنا كالتين المحتفى في وكره من مدة وسيرنا هو كجمع الفيوم والضباب حوله والصمود الى السماء وانى أشرح لكم قليلا حالاتنا في خط مدافعنا بعد موقعة (كيزان)

حاول جيش من العدو قوى مركب من ١٤ اورطة بزيادة و٤٠ مدفع أن يهاجم بشدة وبأس موقنا لاسترجاع (كيزان) باى قيمة وهي كلمة القائد (استوسل) ولكن كان تصميم استرجاعهم هذا بدون جدوى فلقد تفهقروا كثيرا للخلف نحو (شوانجتايكو) و (انزولنج) في الشمال و (تايبوشان) و (لاؤتسوشان) وهناك انشأوا على طول الارتفاعات استحكات مدافعة قوية مصممين على مقاومة أثبت من التي حصلت في (كيزان) أما نحن فقد استمرينا في موقنا نفسه بالتمام كقبل مصممين

على ان لا نعطيهم ولا ذراعاً من الارض التي احتلناها وكان خطنا ممتداً من
(التسولنج) في الشمال الى (لواينشياو) و (ككنزان) و (شوانجيتينشان)
و (تاشانجتين) في الوسط الى (شوانجيتينشان) في الجنوب وكان آلاينا يلاحظ
الارتفاعات الى الشمال الشرقي من (شوانجيتون) و (شوانجيتون)
ولقد ابتدأنا في أول يوم في الحفر بالفؤوس وإذا قابلناها مع اختبارنا
في (شانجشياتون) كنا في هذه المرة قريبين كثيراً من العدو وزيادة على
ذلك كان يلزمنا أن نذمى استحكامات أقوى كثيراً لعلنا ان العدو يريد
أن يهاجمنا من وقت لآخر رغماً عن هزيمته المديدة عند محاولته استرجاع
(ككنزان) وكان الوقت لا يسمح بأن نصرح لهما أننا بأى راحة بعد
محاربتهم المستمرة الشديدة ولا يمكننا أن نترك أبوابنا مفتوحة الى اللصوص
ليلاً مهما كانت رغبتنا في أراحة جنودنا فاحتياج الحالة الشديد لا يسمح
بالالتفات الى المشاركة في الاحساس لتعبهم وكانت الجنود البواسل نفسها
لا تفكر في أى راحة اذ كانوا يحملون ليلاً ونهاراً أكياس الرمل وعراقيل
السلوك المتروكة في (شانجشياتون) طول الطريق الحاد الصخري
أو بدون طريق بالمرّة قابضين على جذور الحشائش أو على رؤوس الصخور
فكانوا مهتمين بوضع الاستحكامات القوية في أى دقيقة خالية بأسرع
ما يمكن وموقعنا هذا كان على جبل حاد صخري كالمهكل العظمى طالا على
وديان جوانبها رأسية تماماً وكانت لا توجد أشجار لوقايتنا من الشمس ولا
جداول مياه لترطيب أفواهنا اليابسة ولكن نسليتنا الوحيدة كانت رؤبتنا
خلال الضباب الطوابي الموجودة على (لواينشاو) والمتاريس الموجودة على

الللال والتمم القريبة وفكرنا أنه عم اقرب سيرتفع الستار وتمثل حينئذ
 رواية حقيقية هائلة على المرشح ولقد تصورنا أيضا فرح حصول المعرفة
 ببسالة ورغبتنا أن نضحى أنفسنا تماما حتى لا تبقى منافطة لحم وكانت
 هكذا الايام تنقضى في أشغال شاقة ومخيلات مزعجة وعند ما يدخل الظلام
 ترى أقساما من أشباح سوداء تتساقق مثل فن هي ؟ هي كانت جنود جدد
 آتون لتغيير الذين تعبوا من أشغال اليوم الشاقة - وهل كان من الواجب أن
 يشتغلوا ليلا ؟ نعم اذا هم الشغل في خط المدافعة ما يعمل ليلا لان طوبجية
 العدو تطلق عليهم نيرانها في النهار ونحاول أن تعرف محل شغلنا وعليه فنجاح
 عملنا يكون مستحيلا فتمويض شغل النهار نشغل الليل وكانت الجنود بينما
 تنظر الى الدخان المنبعث من نيران معسكر العدو من بعد تحفر الارض
 وتكوم الاحجار وتحمل الرمل وتعلم الاكياس وتفرس الاوتاد لعمل
 عراقيل السلوك وفي أثناء الشغل كنا نحاول أن نعمل بدون غاغة أو قليلا
 على قدر الامكان وكان لا يمكننا حتى التدخين اذ ربما اشعال السيكارا يعطى
 فرصة للعدو لاطلاق نيرانه علينا وفي الساعة ٢ أو ٣ صباحا كنا لم نزل
 نشغل بشدة زغمان الامطار الغزيرة أو الانواء وكانت هذه حالة الجنود بدون
 تظلم أو حقد بل مفتكرون في عمل كل ما في وسعهم لوطهم ومليكمهم
 وبالحقيقة فانهم يستحقون التشكرات القلبية والمدح من الامة وكان قسم
 المهندسين يستريح قليلا في ساعات فجر الصباح فقط حتى أن بعضهم كان
 يقف كتمثال وبنادقهم على اكتافهم محلقين بأعينهم نحو العدو واننا لا
 ننسى أيضا واجب الديه بانات الصعب الذين كانوا يتسمون عند ما يكونون

معرضين الى ربح الليل قائلين انه لبرد في هذه الليلة . ألا يوجد هجوم آخر في الليل كالاعتاد؟ وكنا لا نعلم محل وجود طوبجية العدو الحقيقي ولكنهم كانوا يطلقون على الوادى الذى نصبنا فيه نحن ضباط أركان حرب خيامنا كأنهم كانوا متحققين من محلنا وأنى أتدكر تماماً أن دانه كبيرة جاءت طائرة في يوم ١٥ يوليو وقرعت بصوت هائل ففتت الصخور ورمت الحجارة ورفعت دخاناً أصفر غاسقاً وهزت الارض وكنا من قبل معتادين على دانات مدافع الميدان وهذه كانت أول مرة اختبرنا فيها دالة ضخمة كهذه ولقد استغربنا كثيراً لذلك ولكن من المحتمل ان العدو أحضر مدافع بحرية الى (لوانجوانتانج) وأطلق علينا بها والظاهر أن العدو لم يزل يبحث عن إيجاد فرصة لاسترجاع (كينزان) ولذا كان يرسل لنا بمهارة هذه الدانات بعيدة المسافة وكنا نرى دانات الشراينيل بعد فرقتها كالالعاب النارية ولكن حينما يكون الانسان تحت مطر النيران لم يكن مسروراً بالمرة وكان يوجد شيء واحد يحيرنا كثيراً وهو أنه في كل يوم وفي ساعة معينة كانوا يطلقون علينا دائماً بمهارة خصوصية وكانوا يصوبون ذلك دائماً نحو مكتب الرياضة حتى انهم أحياناً كانوا يحماونا خسائر غير منتظرة وكنا نفكر طبعاً أنه يلزم وجود بعض السرفى عمل العدو العجيب هذا وكان غير سهل معرفة الحقيقة ولكن بعد بحث طويل علمت لنا الحقيقة الغربية الآتية كان الصينيون معتادين في سوق أبقارهم وأغنصامهم الى التلؤل خلف خط قره قولاننا ومن هناك كانوا يعطون اشارات من هذه المسافات البعيدة الى الروسيين وقانون اصطلاحات اشارتهم لبيان الاتجاه او الجهة التى يلزم

الاطلاق عليها كان بواسطة اظهار بقرة سوداء أو قطع من الغنم أو الخ
واختبارنا في (شانجشياتون) أنذرنا تماما بأخلاق الصينيين هذه الخطرة
وهي أنهم لا يتأخرون عن تقديم أرواحهم فداء للإسراهم ولكن الآن لم يحاولوا
المرور من خطنا بل كانوا يسوفون أمامهم يبتغي إلى طريق الجبل فكيف
كنا نحلم بهذا العمل وطريقة خيانتهم لنا عند عدونا ولكنهم جهلاء وذرية
شعب طماع فهم يعرفون قيمة الذهب والفضة فقط غير مباليين بفوائد الأمة
أو الأمم وأنهم لم يفكروا بالمرّة عن سبب محاربة روسيا واليابان في
مزارعهم ولكنهم كانوا يفكرون فقط في الحصول على أموال بضات الخسائر
التي لحقت مزارعهم ومحصولاتها وفي الحقيقة يلزمنا أن نجازي هؤلاء
المعتدين بشدة مع أنهم يستحقون مرحمتنا زيادة عن بغضنا وإن الدينار هو
الإله الواحد الذي يعبدونه وأنه حصل في يوم ٢٠ من الشهر نفسه أن بعض
ضباطنا الكشافة تقدموا كثيراً في خط داريات العدو وفاجأوا بعض صف
ضباطهم وبعد ما أتم الضباط اليابانيون مأموريتهم بنجاح تقابلوا في أثناء
زجوعهم مع ثلاثة أو أربعة من كشافة العدو فطاردوا الروسيين واجتهدوا
في أسرهم إلا أن الروسيين أطلقوا النيران على الضباط اليابانيين بكل جهد
ويأس حتى تمكنوا من الفرار تاركين أحدهم في الخلف الذي أسره ضباطنا
ورجعوا معه إلى معسكرنا وهناك مثل الروسي الذي كان أوتباشي بيادة
كالمعتاد وكان ينحني مراراً متوسلاً أن تترك له حياته واعداء أن يقول عن
كل شيء يعرفه فما أمسه ! وكنا نريد أن نعطيه جرعة صغيرة من وطنيتنا
اليابانية وهي « أن الواجب انقل من الجبل والموت أخف من الريشة »

وانا سمعنا أن جنديا يابانيا أسره الروسيون لتعاسة حظه في بورت ارثور لم ينطق بشيء، رغما عن تهديد ووعيد الجنرال الروسي الذي أزيد وارغى واكفر وجهه واحمر من الغضب وبالعكس فان هذا الروسي اطماعا على كل سر حرني بعرفه حتى يحفظ جسمه وروحه معا وعندما طلب منه أن يبين لنا ترتيب الجنود الروسية اشار اليها ووصفها بدون تردد قائلا ان في اليمين يوجد ٢٦ جي آلاى سريعى الطاق وفي الوسط ٢٨ جي آلاى سريعى الطاق وفي اليسار ١ جي آلاى وعلم جراً وبتطبيق أجوبته على تقارير كشافاتنا شاهدنا صدق قوله بالتمام واقدم أخبرنا عن كل حقيقة التي ساعدتنا كثيراً ولكننا مع كل ذلك كنا نتمتة كجبان غير مستحق أن يكون في زمرة الجنود الصادقة الامينة وفي هذا الصدد استحو الى أن أخبركم عن استنطاق جندي روسي أسر في الليلة التالية لهجومنا على (كيزان) وكان مختبئاً تحت صخرة كبيرة وكانت محادثتنا معه كالآتي

سألناه ما فكرتم في هجومنا؟

جوابه كنا خائفين ومنتظرين في كل لحظة أنكم تهاجونا هجوما عنيفا

سألناه هل رؤساؤكم يمتنون بكم جيدا؟

جوابه عند حضورنا الى بورت ارثور كانوا لطفاء وشفوقين علينا

ولكنهم أخيراً تغيرت أحوالهم فالتالم نستول على ماهيتنا في

مدة الثلاثة أشهر الاخيرة وخفضت مؤونتنا أيضا الى النصف

لان الباقي جميعه يذهب الى جيوبهم الخصوصية

سألناه هل الذين هزموا في (نانشان) رجعوا الى بورت ارثور؟

جوابه لم يسمح لهم بدخول الاستحكام الاصلى وأمروا بالشغل في الخط الاول وهناك يتغدون من البلاد المجاورة لعدم وجود مؤونة كافية لهم

سائفة هل تعلم أن الكثيرين من أبناء جلدتك أرسلوا اسرى لليابان ؟
جوابه نعم أعلم ذلك إذ من بضع أيام فقط أرسل أحد أصحابي الى اليابان أسيراً

فكيف أن الضباط والقواد ينتظرون الاحترام والطاعة والخدمة الصادقة من التابعين لهم بدون أن يحبوهم أو يعتنوا بهم فانواع الخدمات الاخرى يمكن احرازها بطرق كثيرة ولكن خدمات الجنديّة الصادقة في وقت الحياة والمات في ميدان القتال متوقفة على حب الضباط لجنودهم كاولادهم والجنود تخدم ضباطهم كأبائهم وعند ما يستحوذ الضباط على ماهية جنودهم ويتقصون مؤونتهم بدون شفقة بينما تكون الجنود في شدة الاحتياج والتعب فكيف يمكنهم أن يحترموا ويحبوا ضباطهم وكيف ينتظر الضباط أن الرجال يموتون لاجلهم وهم غير شفيقين عليهم أما السبب في أن الجنود الروسية كانت تنهب الالهالى البريشين في كل مكان غانمين كل ثمين سارقين طعامهم وسايين نساءهم وبناتهم فيوجد له بعض توضيحات في أقوال الاسير الروسي السابقة

وكانت أعمالنا في خط المدافعة تزداد منعة يوماً بعد يوم والروسيون مستمرين في اطلاق فذابلهم تحت ستر الظلام وكانوا كلما هاجمونا ردوا على أعقابهم وكانت دانات المدافع تشق الهواء بدون انقطاع الا أن تصويبها

غير محكم وكنا نفكر انه لربما تفرغ ذخيرتهم بدون جدوى وكان رصاصهم يقتل أو يجرح صدفة وأنه لا يوجد سبب للأسف في معركة شريفة ولكن اذا جرح أو قتل الانسان في خدمة مدافعة كهذه وفقد الفرصة المرغوبة وهي الاشتراك في موقعة كبرى ستكون بعد قريب فهذا شيء لا نستلذ به وكانت الكلمات الآتية تخرج من أفواه الجنود المجروحة في المدافعة « لا أرجع أبداً الى الخلف ولا أريد أن أرسل الى محطة لربط الطيبة » وهي تدل جلياً على أسفهم ولذا يمكننا أن نشاركهم في احساساتهم الشريفة بكل قوانا

الفصل الخامس عشر

المعيشة في المسكر

كنا ناعتمدنا على خيامنا كوقاية كافية على الاقل من المطر والندى ولكنها صارت في حالة تميصة لانها قطعت من الارياح وأتلفتها الامطار وأنا مكثنا تحت تلك الخيام نحو الستين يوماً أعنى من يوم نزولنا البر وكانت الحظوظ تما كسنا عند إيجاد محلات أخرى اذ القرى الصيفية قلما توجد بها منازل عديدة بل فقط ثلاثة أو أربعة معاً هنا وهناك وهي غير صالحة بالمرّة لسكن جيش كبير ولما كنا نمضى أحياناً ليلة تحت سقف منزل محتمين به من جو رديء كنا نشم دائماً رائحة الخنازير والثوم الرديئة وهي عندهم كالو كنا ننام فوق فراش الحشيري في غرف مزخرفة في وطننا فكانت الخيام منازلنا المعتادة وكانت حالتنا بهذه الكيفية أحسن بكثير مما لو كنا ننام في المزارع الرطبة